مصارع الادباء

بلغ من بغضيَ للشعر أن صرتُ أعرض عن سوانح معانيه في لوامع قوافيه . القاعد بالجدود عن منازل الشرف ، المتواكل بالعزمات عن بلوغ نهايات الأرب . احدى فتن الخيال . تجري بها البدائة فتلقّاها مسامعُ بالقَبول ، وتتلقاهـا مسامعُ بالملال . أبعدْ به و بطلاّبه

يتهادى امراء الذّهب بين « شولر » و بين « سبلندِذبلر » تُساقِط اعطافهم الجنيهات ، ويطوفون حول معاهد الصبوة في عواصم الغرب من « مُنْتْ كارلو » الى « مُنْتْ كارلو ». ثم يأوون الى بيوتٍ كثرت فيها الديكة والحمائم ، ثمّ يصبحون في لزباتهم يهبون المال في دعاوي ومخاصمات : فطلاق وزواج وميراث وشركة يتخلل ذلك كله لعب الورق واستشارة الوكيل وإدلال الكاتب ، وما ادراك ما الكاتب ، و بيع الاطيان واقتراض المال . بدراتٌ تفيض المسجدَ ، وتنفجر عن ذوب اللُّجين ، والشاعر يريد ان يبيع ديوانهُ « بقرصٍ من الطعميّة » فلا يجد مشترياً ، والكاتب يعرض دفاتره مجّاناً فلا يرى قارئاً فسبحان الله !

علَمٌ من أعلام العراق . هو أبو القصائد المحبَّرة والقوافي المحكمة . نزيلٌ بمصر ، مقيمٌ في دار حزنه يعالج أيامهُ ، ويعاني شدائدهـا وليس بمصر مَن يقول له أين أصبحتَ أيها الأديب العظيم ؟ « أحمد مفتاح » رجلُ البلاغة ، يموت ويدفن ولم تكتب خبر وفاته جريدة من الجرائد فيما علمت . و « محمد امام العبد » وهو شاعر مجيد يُوسّدُ بالأمس التراب ، ولا يتقدَّم أحد ليقيم له ليالي مأتمه . وفي بلاد الغرب يصنعون التماثيل للشعراء ، ويسمّون باسمائهم الشوارع والدوارع ، ويجعلون لميلادهم ولموتهم اياماً في كل سنة هي بمنزلة أيام الأعياد . ويقولون بمصر : الدستور والجلاء والمؤتمر ، وتكتب الجرائد ليحيَ وليسقط . من يحيي ومن يسقط ايها المساكين ؟

لكل آمريء في هذه الأمـة موضع يميّزه ؛ والناس في درجاتهم متقاربون . وليس رجلٌ ينكرهُ معارفه ، ويتجافاه أقرب أقاربه الاّ الأديب . فهو اذا برّز على أقرانه حسدوه ، وان أقصر عنهم حقّروه ، وان ولج جمعاً جالت فيهِ أبصار المستهزئين . ولله في خلقه اناسٌ يفخرون بملابسهم ، وليست بصنع أيديهم ، ولا انسجتها من نسجهم ، ولا اثمانها من كسبهم ، ولا زينتُها تجمل ما قبح من اشكالهم . اولئك يطاؤون الهامات ، ويذلّون الرقاب ، ويتهادون في كل مزدحمٍ ، تهاديَ الكواعب الرُّود في الوشي والبرود . طواويسُ الرجال يقضون طوال الأعوام في ديوان الحياة ، ثم يخرجون منهُ كما تخرج الأنعام من تحت السقائف ، لا متزودين ولا مستخلفين . الى حيث ألقت رحلها !

* * *

ننظر الى الكتاب المطبوع باحدى اللغات الأجنبية فنرى مكتوباً على جلدهِ : الطبعة العشرون والطبعة الخمسون وا كثر من ذلك . وقد يكون عدد نسخ الكتاب ، في الطبعة الواحدة ، عشرة آلاف على الأقل ، وليس في الشرق كتاب طُبع مرّتين الاّ نادراً او ما كان متضمناً للمجون . وجرائدنا يأكل مشتركوها اثمان اشتراكهم فيها ، ويكتفي قرّاؤها بنسخٍ يأخذونها من المشتركين ، او يقرأونها في القهوات . وقد يبالغ في الغرابة بعضهم فيردّ الجريدة مكتوباً عليها (مرفوضة) بعد ان يكون قرأها أشهراً وأياماً . وأغرب منهم من جاءته جريدة « الجامعة العثمانية » وهي جريدة كانت تنشرها « الجامعة العثمانية » في بيروت ، وتعطيها من دون ثمن ، ويُكتب على غلافها « مجاناً » فردَّ الرجل الجريدة بعد ان كتب على غلافها بالعربية والفرنساوية « مرفوضة » . رفضَ الفضل ورفض الكرامة . لا طال ذنب زمانه ! ولم يخجله كرَمُ الذين أحسنوا بها عليهِ احساناً لم يقع على مستحقّهِ . ومثل هؤلاء المخلوقات كثير بيننا ولا فخر !

يموت ادباؤنا ، وتُطفأ أنوار المعاني في عقولهم ، وتبقى بيوتهم خاليةً وأجداثهم داثرةً ، وليس فينا من تحدّثهُ نفسهُ بأن ينقّبَ عن آثارهم ، وينشرَ للأمة ما طويَ من معارفهم إقراراً بفضلهم ، وتخليداً لذكرهم ، واستفادة من آثار قرائحهم . ونحاول بعد ذلك أن نجاري الأمم او أن نُشبه عباد الله . ما أكبرَ جهلنا باقدارنا ، وما أبعدنا عن مواضع الانصاف

لا أديبُ العراق أجدتهُ فرائده ، ولا الاستاذ مفتاح هنأته بلاغته ، ولا امام العبد أغناهُ شعره . وانّ نسخة من قصة « القاضي والحرامي » او قصة « دليلة المحتاله » لأحبُّ الى عامّتنا ، وأشهى الى خاصّتنا من درر هؤلاء العظماء وجواهرهم ، وأدعى للشجون ثم أبعثُ للطرب من قصائدهم وفصولهم . سقاهم الله ! رعاهم الله ! عاشوا مظلومين وماتوا مظلومين . وأودعتْ بطون المقابر كنوزاً يتباهى بامثالها ملوكُ الأرض . يروى أنّ بعض الانكليز يقول « لو خُيّرنا بين أن نخسر الهند كلها أو نخسرَ شكسبير لاخترنا خسارتنا للهند ، ولأبقينا شاعرَنا عوضاً عنها » ونحن ماذا نقول ؟ نقول لنحيَ الديكةَ والحمائم ، أم نصيح ليحيى الدستور ؟؟

انا لنطمعُ اليوم في ان ننال ما لا يتاح لنا الاّ بعد خمسين عاماً فمثَلنا مثَل جماعة من العميان قيل إنّهم ركبوا أحدَ المعابر (القوارب) ليعبروا النيل . فقال قائلهم : هل لكم في الخروج من المركب من غير ان تدفعوا اجراً ؟ قالوا بلى . قال : اذن فاسمعوا لما أقول . اذا قارب المعبرُ الشاطئ صاح النوتي . « فلّق » . فثبُوا هنالك وثبةَ رجلٍ واحد ، وتفرّقوا هرباً ، واعلموا أنهُ لا يترك معبرَهُ ويعدو وراءكم . فقبلوا المشورة . وكان النوتيُّ يسمع المؤامرة وهم لا يشعرون . فلما توسّط النهر صاح . « فلّق » . فوثبَ العميان فوقعوا في البحر وغرقوا . واني لأخشى ان يناديَنا الغرورُ نداء النوتيّ فنغرق غرق العميان

الأمة في حاجة الى نوابغها ، ونوابغها غرباء بينهـا ، والصوت الأرنّ والقول

المسموع ما يهتف بهِ قوم صمتت ألبابهم ، ونطقت ألسنتهم . هم المسيطرون وهم الزعماء

حَسْبُ الأديب في الشرق نعوتاً تكال له كيلَ الحشف . فهو الأديب الفاضل، والشاعر البليغ ، والكاتب البارع ، واللوذعيّ والالمعيّ وغير ذلك . وليت هـذهِ النعوت تحبى لمن تصدق فيهِ ، او فيمن تكاد تصدق فيهِ . ولكنهُ مشارك فيها مشاركة الغبن . أهل البلدة كلهم ادباء فضلاء بلغاء فصحاء ، ما سلم من ذلك ملكٌ ولا سوقة . واظنُّ هذه هي المساواة التي يطلبهـا مجانين الدستور ، لا المساواة في الحقوق التي يثني عليها أهل الانصاف

ألا مَن مبلغٌ عني كلَّ أديب في الشرق أنهُ أديب وانهُ فاضل ، وانهُ لوذعي ، وانهُ ألمعي ، وانهُ بفصيح ، وانهُ بليغ وانهُ عند الناس وجودُهُ مثل عدمهِ ، وانهُ أهون على امراء الذهب من ديكٍ من ديكة الهند ، او من حمامةٍ من حمائم اليمن

كنت ذات يوم راجلاً من دار البريد وفي يدي سيكارةٌ هي أخرى اخواتها . فرَّ بجانبي رجلٌ يسرع في مشيتهِ ، فاستطارها من يدي حتى وقعت على الأرض ! وكان اليومُ شديدَ الهاجرة لافحَ الحر . فلما توسطت الشارع رأيت عربةً نظيفة فيها رجلٌ من رعاع القوم ، وامامه اثنانِ من الأوزّ . ثلاث رفقةٍ في خير عربةٍ ، يقودها جوادانِ مطهَّمان . فرفعت طرفي الى السماء وقلت : يا ربِّ تُلهمني الشعرَ ، وتُجري يراعيَ بما يستطيعُ من النثر ، وتجعلُ عبادك يدعونني بالأديب إن صدقاً وان كذباً ، ثمَّ أرى أني أحقرُ من الاوز في هذا الشرق ؟؟ ثم انصرفت صابراً

هذا ميدان واسع ، يتعب الجائل في ارجائهِ . ولولا حقوقٌ للأدب وأهله ما سطَّرتها . ثلاثة اخوانٍ : مكروبٌ ودفينان . أما الرثاء فبعضُ ما يجب ولن يفوتني ما استطعت منهُ ، وأما النحيبُ فاني سوف انتحب . فمَن لي بمَن يساجلني الدمعَ ، ويشاركني في الشكاية . اما أنّا لمظلومون ! ! ولي الرثيه يكمه